على الغلاف

عون مش «مفكر حال

في اجتماع تكتل التغيير والإصلاح الأخير يوم الثلاثاء الماضي مرّت عينا رئيس التكتل النائب ميشال عون مراراً على الكرسي الشاغر الذي كان يشغله الوزير المستقيل شربل نحاس، لكنها لم تطل ولا مرة المكوث عند ذلك الكرسي. فحول طاولة التكتل كراسيّ كثيرة تستوجب توقف الجنرال عندها

(هيثم الموسوي)

غسان سعود

حول طاولة التغيير والإصلاح في الرابية ثمة كرسي يشغله منذ دورتين انتخابيتين رجل يدعى يوسف الخليل. لا هو مفكر اقتصادي ولا مناضل نقابي ولا خطيب سياسي. في كسروان يسمونه «نائب السماعة». عشية انتخابات 2009 خلصت كل الدراسات الانتخابية التي أعدتها الرابية إلى أن هناك مجموعة ناخبين في كسروان تقدر ـ على نحو غير طبيعي ـ للخليل معاينته الطبية لها مرة من دون مقابل، ويدفعها مبدأ «ردّ الجميل» إلى ترجيح كفة فريق سياسي على آخر. استقبل العماد عون يومها وفوداً شعبية أتى بعضها يقول إنه مع الإصلاح والتغيير، شرط أن يكون لآل الخليل ـ وهم من العائلات الكسروانية الكبيرة ـ مقعد فيه، فيما اشترط بعض آخر أن يكون لآل الخازن مقعدهم أيضاً، وكذلك الزوينيون. كان يوسف الخليل في اجتماع التكتل الأخير صامتاً كالعادة، ومتفرجاً. كان قلب الجنرال على كرسي نحاس وعقله في كرسي الخليل. المشكلة بالجنرال أم بالناخب الذي لو خير في كسروان مثلاً بين أفكار نحاس الاقتصادية وسماعة الخليل لاختار السماعة؟ فكّر الجنرال كم كان يفضل لو كان جيلبير سلامة الذي نشط في التيار الوطني الحر نحو عشر سنوات في كلية الحقوق والعلوم السياسية أو روك مهنا أو جورج دغفل هو الجالس أمامه بدل يوسف الخليل الذي لا يمثل أكثر من بقايا إقطاع عائلي و... طبي. لكنه الناخب ـ لا عون ـ الذي يفضل سماعة الطبيب على نضال الشباب، وعائلة الطبيب على حماسة سلامة ومهنا ودغفل للإصلاح والتغيير. بعد حسابات الربح والخسارة، فهم الجنرال أنه سيربح معركة مبدئية ويخسر حرباً، فاختار (عبر يوسف الخليل بدل أي ناشط في التيار) خسارة معركة على أمل أن يربح الحرب. لو لم يختر يوسف الخليل وجيلبرت زوين لخسر مقاعد كسروان لمصلحة 14 آذار، ولو لم يختر التسوية في الحكومة لخسرها لمصلحة تيار المستقبل.

لا، لم يكن نحاس أول اختبار يخوضه الجنرال. الاختبار الأخير أسهل مما سبقه. اليوم فضل استمرارية الحكومة على انفجارها وعودة تيار المستقبل إلى السلطة. في السابق، خيّر بين أبناء تياره الذين هم بمثابة أبنائه، وبين وجهاء مناطقيين أقل ما يصفهم عون به، بحسب عارفيه، هو: وصوليون هامشيون تافهون يفترض اقتلاعهم من جذورهم من الحياة السياسية.

تعود عينا عون إلى كرسي نحاس. ألا يحلم الجنرال لو لم تشب خطاب تياره العلماني كل الهفوات المذهبية التي تشوبه منذ ست سنوات؟ بلى طبعاً. ألا يحلم لو يكمل في عهد البطريرك بشارة الراعي ما بدأه في عهد سلفه نصر الله صفير لناحية محاصرة بكركي بالدعوات إلى كفّ الدين عن التدخل في الدولة؟ بلى طبعاً. ألا يحلم بأن يزجّ فؤاد السنيورة في السجن، ويفتح حسابات آل الحريري الخاصة لتسترد الخزينة العامة ما نُهب منها، وينفي سهيل بوجي وأشرف ريفي ووسام الحسن وسعيد ميرزا وعبد المنعم يوسف؟ بلى بالطبع. ألا يحلم بأن يكون نحاس حاضراً اليوم وسطهم ويضحكون جميعهم لخروج التظاهرات الشعبية وانتفاض القضاة نصرة للقانون وتحرك مجلس النواب ليفرض على رئيسي الجمهورية والحكومة السير بـ«توجيهات» شربل؟ ألف بلى طبعاً. لكن المسافة شاسعة بين الأحلام والوقائع. الشعارات شيء والوقائع شيء آخر.

الوقائع تقول إن كسر أمين الجميل في المتن يفرض التحالف الانتخابي مع ميشال المر، ليس حباً من عون للمر، بل لأن الناخب أثبت أنه غير مستعد للقتال مع عون في معركته لكسر الاثنين. اختار عون كسر الأسوأ اليوم والسيئ لاحقاً. الوقائع تقول إن مواطناً واحداً من خارج التيار الوطني الحر لم يلتفت بين عامي 1992 و2005 ليقول إن هذا الرجل ـ عون ـ محق في ما يكتبه من منفاه الباريسي بشأن الحوت الحريري والأزمة الاقتصادية التي تنتظر البلد. الوقائع ـ وعون يحترمها ـ تقول إن الجمهور يقتنع بما يقوله عون عن عبثية خيارات سمير جعجع المسيحية حين يكون البطريرك هو المتحدث لا عون. فتّشوا عمّن حتم على عون الرضوخ للتسويات. منذ عودته من باريس يمثل عون مسيحياً الصوت المعتدل الذي لا يريد لطائفته والبلد الذهاب إلى حروب عبثية. ترك عون لسمير جعجع أداء ذلك الدور. يمثل عون مجتمعاً أنهكته الحروب العبثية والقيادات الأساطير والأحلام التي يدفع ثمنها الشباب هجرة وبطالة. يقدم عون نفسه بصفته الزعيم الذي يمسك قلماً وورقة ويحسب بدقة كلفة كل خيار ينوي اتخاذه بالنسبة إلى مجتمعه. كثر ممن لم يحبوا ميشال عون 1988 أحبوا عون 2005، بدا لهم أكثر واقعية وأقل جنوناً.

الوقائع تفيد بأن قرب كرسي نحاس حول طاولة التكتل ثمة كرسي تشغله جيلبرت زوين. خلال سبع سنوات لم تبق نهفة عن زوين تخطر في العقل إلا حملها الثرثارون إلى الجنرال ليضحكوه بها، لكنه عند كل بحث انتخابيّ جديّ كان يصدم بامتلاك زوين كتلة ناخبة متماسكة تُجير النائبة الكسروانية أصواتها كما تشاء. قرب زوين يجلس فريد الخازن. تتنقل عينا الجنرال بين الاثنين. هذا أستاذ جامعي، خبير في العلاقات الدولية ومنظّر في القوانين الانتخابية، فيما تلك ليست بالعبقرية السياسية ولا تفقه معنى الخطط الاقتصادية. لكن في صندوق الاقتراع تجيّر زوين للائحة الإصلاح والتغيير أضعاف ما يجيّره الخازن. ينتبه عون أيضاً إلى أن السبب الرئيسي في وجود الخازن بينهم هو أنه ابن الخازن وأنه حين أتى ليشكل لائحته في كسروان فهم أنه لا يستطيع أن يستثني آل الخازن الكرام. اختار أقربهم إلى التيار؟ نعم ولكنه عجز عن استثنائهم. أما في أفكاره الثورية فكان يأمل أن لا يبقى من هذه العائلات (سياسياً طبعاً) شاهد يخبر عن عزها الغابر وإقطاعها المندثر. مرة أخرى، ناداه ذلك الصوت: لا تضحِّ بالحرب من أجل معركة.

قبل عشرين عاماً كان عون من عمر نحاس. اختار أن لا يوقع، معتقداً أنه سيخسر مجرد معركة في حرب. لكنه أمضى عشرين عاماً لاحقاً في العمل لتعويض ما خسره في تلك المعركة.

صهر الجنرال

لم يعد يرى العالم في الرابية غير جبران باسيل وفي باسيل غير صهر الجنرال. باتت المشكلة في أن باسيل صهر عون وليست في أن بطرس حرب نائب منذ أربعة عقود وليس في البترون مشروع إنمائي واحد. باتت المشكلة في تذاكي باسيل وليست في ادعاء حرب وتكبره ومشيخيته.

باتت المشكلة في تولي صهر الجنرال حقيبة الطاقة بعد الاتصالات وليست في أولئك المصرين على مبايعة حرب الزعامة لأنه ملأ الإدارات العامة بأبنائهم وبرر لهم عند مؤسسة الكهرباء مخالفاتهم وحمى مصالحهم. شُغلوا بـ«الإقطاعي الجديد» ونسوا الإقطاعي القديم. صار سامي أمين بيار الجميّل وأتباعه يتحدثون عن «صهر الجنرال» ومريدو سعد رفيق الحريري وبهية الحريري وأحمد ونادر الحريري يتحدثون عن «صهر الجنرال»، ودوري كميل شمعون وكميل دوري كميل شمعون وميشال نايلة رينيه معوض وكاظم صالح الخير يتحدثون عن «صهر الجنرال».